الاهرام

« وما قيل فيها »

قال علماء الآثار من الفرنج ان قبور ملوك مصر من الفراعنة الى عهد العائلة الثانية عشرة كانت هرمية الشكل ذات قواعد مستطيلة وكانت تبني من الحجر تارة ومن اللبن (الطوب النيء) تارة أخرى فان كان بناؤها بالحجر قطعت الاحجار من الجبل المجاور لموقع الهرم وان بنيت من اللبن ضرب لها الطوب في المحل المراد بناء الهرم به وأخذ الطين من السهل القريب منه

أما الاحجار اللازمة لكسوة قاعاته ودهاليزه الداخلة وسطحه الظاهر فكانت تؤخذ من محاجر «طره»

ولكن المواد التي كان ينبغي الجد في مداركتها وتقدير كمياتها قبل الشروع في العمل انما هي الجرانيت {الصوان} والرخام وحجر البازلت «المرمر الازرق» التي تتخذ منها التوابيت المعدة لان توضع بها جثث الموتى وكان الملك يعهد بمداركة تلك المواد الى كبار حاشيته ليذهب لاستحضارها من اصوان ووادي الحمامات وغيرها من المقاطع المعتادة عندهم وكان نقل تلك المواد الى المكان المعد لبناء الهرم مع السرعة مما يوجب رضاء الملك على من كلفه بذلك ويفتخر المأمور بها بقضائها في أقرب وقت اذ يؤخذ من النقوش الموجوده على بعض الاحجار ان ذلك المأمور يفتخر بقوله انني قد أحضرت حجر الجرانيت هنا في مدة كذا من الاشهر وكافأني الملك على ذلك بان رقاني لوظيفة كذا . ويحتوي الهرم على جمله دهاليز وقاعة يوضع بها تابوت الملك وفي عهد العائله الرابعة كانت القاعة المعدة لوضع التابوت بداخل الهرم

أما فى عهد العائلات الاخرى فكانت تلك القاعة تبنى تحت جسم الهرم وقد اتفق هؤلاء العلماء على ان أول هرم بنى بمصر هرم سنفرو ولكنهم اختلفوا فى تعيين موقعه فقال بعضهم انه الهرم المدرج الموجود بسقاره المسمى قاقنه وقال آخرون بل هو هرم ميدوم واستندوا فى ذلك على ماعثر عليه أحدهم من النقوش الموجودة فى المقبرة المجاورة له التى بناها كبار دولة هناك وسنفرو هذا آخر ملك من ملوك العائلة الثالثة وقيل ان آخر هرم بنى ينسب الى أوزرتسن الثانى من ملوك العائلة الثانية عشر ومن هذا يؤخذ ان استعمال الاهرام بصفة قبور استمر مدة تقرب من نحو أربعة عشر قرنا . ولقد يستغرب الانسان من وصول قدماء المصريين الى رفع تلك الاحجار وادخالها فى بناء الهرم على ارتفاعه العظيم عن سطح الارض خصوصاً مع العلم بان المصريين لم يكن لديهم اذ ذاك من الآلات الرافعة المعروفة الآن ولذلك يجدر بنا أن نوقف القراء على طريقة ادخال تلك الاحجار فى الطبقات العليا من الهرم . قالوا انه بمجرد بناء القاعدة يرص بجانبها وعلى امتدادها من الطوب أو الحجر زلاقة يستوى سطحها مع سطح القاعدة ثم يأخذ فى الميل تدريجاً الى ان ينتهى الى سطح الارض الاصلية وعلى هذا السطح المائل تدحرج الاحجار التى تدخل فى بناء الطبقة التى تلى طبقة القاعدة وبتمام الصف الثانى من هذه القاعدة ترص بجانبه الزلاقة التى تخدر بالميل تدريجاً وتمتد على مسافة أطول من الزلاقة الاولى الى ان تنتهى لسطح الارض لتدحرج فوقها الاحجار التى تدخل فى بناء الطبقة الثالثة من البناء وهكذا كلما بنوا طبقة يرصون الاحجار أو الطوب على هيئة سطح مائل ليدحرجوا عليه الاحجار التى تدخل فى بناء الطبقة التالية حتى ينتهوا الى قمة الهرم فيكون السطح المائل بجوار الهرم ممتدا

امتدادا عظيما لانه كلما ارتفعت الطبقة كلما ازدادت الزلاقة طولا

وتختلف الاهرام فى الارتفاع اختلافا عظيما فمنها ما يبلغ ارتفاعه مائة وخمسة وأربعين مترا ومنها مالا يتجاوز ارتفاعه عشرة أمتار وقد ظن البعض ان هذا الاختلاف يتبع مدة حكم الملك طولا وقصراً ولكن هذا الظن لم تؤيده الوقائع اذ أن الباني لاحد اهرام صقاره واسمه الملك أوناس حكم ثلاثين سنة ولم يبلغ ارتفاع هرمه ٦٠ متراً مع ان هرمى الجيزة الشاهقين بنيا فى عهد ملكين لم تزد مدة حكم الواحد منهما عن أربع وعشرين سنة والحقيقة ان الهرم كان يخططه المهندسون للملك فى أول ملكه على قدر ما يعده لهم من النفقات وبعد ذلك يشرع فى بنائه وترصيفه الي اتمامه وكانوا يبنون الاهرام تقابل بجوانبها الجهات الاربع وأكبر هرم ينسب الي الملك خوفو كان له كسوة من الظاهر حجارتها مختلفة الالوان جيدة التعشيق حتي ان الناظر لها لا يظن الهرم قطعة واحدة ولم تزل هذه الكسوة باقية الى عهد الفتح الاسلامي

أما باطن الهرم فصرف المهندسون فيه كل عنايتهم ليخفوا عن أعين الحساد تابوت الملك خصوصا وقد غطيت الفتحة المؤدية الي الداخل بالكسوة الظاهرة . وانى أصف للقراء داخل الهرم ودهاليزه العديدة ليعرفوا مقدار حرص المهندسين على اخفاء الحجرة التي وضع بها تابوت الملك

كان مدخل الهرم الكبير في منتصف الجهة الشمالية منه على ارتفاع الطبقة الثامنة عشرة أي يرتفع عن سطح الارض نحوا من خمس وأربعين قدما وهذه الفتحة تؤدى الى دهليز ارتفاعه متر وعرضه متر وربع وامتداده سبعة وتسعون مترا ينتهى الى قاعة لم يكمل بناؤها ثم يتصل بعدها بدهليز آخر طوله ثمانى عشر مترا وفي سقف الدهليز الاول على مسافة تسعة عشر

متراً من المدخل فتحة تؤدى الي دهليز يصعد ثم يلتقي بالاول وهناك يتفرع الى فرعين أحدهما يمتد أفقياً الى داخل الهرم وينتهي الى أودة سمتها العامة أودة الملكة والآخر يأخذ فى الصعود وفى الاتساع حتي يصل ارتفاع سقفه الي الثمانية أمتار ونصف وهو مصنوع من الحجر المصقول المتقن الوضع والهندام حتي أنه ليصعب ادخال الشعرة أوسن الابرة بين الحجرين من سقوفه وجوانبه

أما الدهليز المؤدي الى الحجرة التى بها تابوت الملك فمسدود أوله بلوح من الصوان السميك ثم يخلله أربعة ألواح أخرى صوانية تبتعد عن بعضها بمسافات متساوية فى الطول وهذه الحجرة ويبلغ ارتفاع سقفها نحو ستة أمتار وطولها عشرة ونصف وعرضها خمسة خالية من النقوش والكتابة وليس بها الا التابوت ولاغطاء عليه

ومن هنا يعلم ان شدة حرص المهندسين في اخفاء الحجرة لم تأت بالفائدة المطلوبة ازاء حرص شدة المتشوفين ومحبي الاطلاع على خبايا الهرم

اما هرم كفرن فكان وضعه الداخلي غير وضع هرم خوفو لان له مدخلين أحدهما فى قاعدته والآخر على ارتفاع خمسة عشر متراً وكلاهما في الوجهة الشمالية والقاعة الاولى بها نقوش محفورة فى الحجر والدهليز الموصل لقاعة التابوت محفور فى الصخر وكان هذا التابوت الذي هو من الرخام الازرق وبداخله جثة الملك باقياً في مكانه الي أوائل القرن الحاضر فأخذه أحد الانكليز ولكن المركب التي كانت تحمله الي انكلترا غرقت به على شواطيء اسبانيا

هذه هى أقوال متأخرى علماء الآثار من افرنج فى الاهرام وكيفية بنائها وباطنها وظاهرها وهى تكاد لا تخرج عما قاله مؤرخو العرب منذ

عشرة قرون

فقد ورد في المقريزي نقلا عمن سبقه من المؤرخين ممن أذكرهم على ترتيب القرون التى جاؤا فيها ان الاهرام كانت بارض مصر كثيرة جدا منها بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين وابن وأكثرها حجر وبعضها مدرج واكثرها مخروط أملس وقدكان منهابالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغارهدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قره قوش وبنى بها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة وأعظم الاهرام الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف الناس فى وقت بنائها واسم بانيها والسبب فى بنائها وقالوا فى ذلك أقوالا متباينة

فقال ابن خرداذبه (١)

« قد انفردت مصر بهذه الاشكال فليس لها بغيرها تمثال يظنهما الناظر للديار المصرية نهدين ويحسبهما القابل أن مكارم أهلها قد أعدتهما للتكرم ابلوجين تراهما العين على بعد المسافة واذا حدثت عن عجائبهما يظن انه حديث خرافة وقد أكثر الناس فى ذكر الاهرام ووصفها ومساحتها وهى كثيرة العدد جدا وكلها ببر الجيزة على سمت مصر القديمة تمتد نحوا من مسافة ثلاثة أيام وفى بوصير منها شيء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين وبعضها لبن واكثرها حجر وبعضها مدرج واكثرها مخروط أملس » اه

وقال على بن رضوان الطبيب (٢) فكرت فى بناء الاهرام فأوجب علم

(١) توفى ابن خرداذبه فى حدود سنة ٣٠٠ هجرية

(٢) توفى ابن رضوان الطبيب فى سنة ٤٥٣ هجرية

الهندسة العملية ورفع الثقيل الي فوق أن يكون تقوم هندسوا سطحاً مربعاً ونحتوا الحجارة ذكراً وأنثي ورصوها بالجبس البحري الى ان ارتفع البناء مقداراً مايمكن رفع الثقيل وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتي يكون السطح الموازى للمربع الاسفل مربعاً أصغر من المربع السفلانى ثم عملوا في السطح المربع الفوقانى مربعاً أصغر بمقدار مابقى فى الحاشية مايمكن رفع الثقل اليه (١) وكلما رفعوا حجراً مهندما رصوه اليه ذكرا وأنثى الي ان ارتفع مقدار مثل المقدار الأول ولم يزالوا يفعلون ذلك الي أن بلغوا غاية لايمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع ونحتوا الجوانب البارزة التى فرضوها لرفع الثقيل ونزلوا في النحت من فوق الي أسفل وصار الجميع هرماً واحداً اهـ

وقال أبو محمد عبدالله بن عبد الرحيم القيسى (٢) فى كتاب تحفة الالباب « وقد دخلت فى داخل الهرم فرأيت قبة مربعة الاسفل مدورة

---

(١) وهذه الطريقة ربما كانت ابسط وأسهل من طريقة الزلاقة اي السطح المائل التي تقضي لان يكون امتدادها الفا وثمانماية متر بفرض أن يكون ارتفاع الهرم مايه وخمسين مترا وبيان ذلك أن المفهوم من جعل المربع الثانى صغيرا ترك شيء من الجوانب يمكن من رفع الثقيل اليه ورفع الثقيل منه الي نهاية ذلك المربع الصغير ثم يمكن من رفع الثقيل الي الجوانب التى تترك عند جعل المربع الثالث وهكذا الي النهاية وعند النحت تستوى الحجارة ببعضها وتزال تلك الزوائد

وهناك طريقة أخرى ذكرت فى المقريزى قال وكان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج فاذا فرغوا نحتوه من فوق الي أسفل ويمكن ان يكون الدرج من البناء الوقتي بجوار أحد واجهات الهرم لتجزئه ارتفاع الهرم الي ارتفاعات صغيرة على قدر طاقة الآلات الرافعة المعروفة وقتئذ فكانت ترفع الاحجار الثقال من درجة الى الدرجة التى فوقها ثم من هذه الي التي تليها ولو عمل درافيل فوق مستويات مائلة من الاخشاب كالسقائل العلويه المستعملة الآن فى العمارات

(٢) توفى فى سنة ٥٦٠ هجريه

الاعلى كبيرة فى وسطها بئر عمقها عشرة اذرع وهى مربعة ينزل الانسان فيها فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابا يفضي الى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم اكفان كثيرة اكثر من مائة ثوب على كل واحد قد بليت بطول الزمان واسودت وأجسامهم مثلنا ليسوا طوالا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شيء وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض وأجسادهم قوية لايقدر الانسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغثا لطول الزمان وفي تلك البئر أربعة من الدور مملوءة باجساد الموتى وفيها خفاش كثير وكانوا يدفنون أيضاً جميع الحيوانات فى الرمال ولقد وجدت ثيابا ملفوفة كثيرا مقدار جرمها أكثر من ذراع وقد احترقت تلك الثياب من القدم فأزلت الثياب الى أن ظهرت خرق صحاح قوية بيض من كتان أمثال العصائب فيها أعلام من الحرير الاحمر وفى داخلها هدهد ميت لم يتأثر منه ريشة ولا من جسده شيء كأنه قد مات الآن

وفى القبة التى فى الهرم باب يفضي الى علو الهرم (١) وليس فيه درج عرضه نحو ٥ أشبار يقول انه صعد فيها في زمان المأمون فأفضوا الي قبة صغيرة فيها صورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج فأخرجت الى المأمون فاذا هى مطبقة فلما فتحت وجد فيها جسد آدمي عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر وعلى صدره نصل سيف لاقيمة له وعند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة يضيء كلهب النار فأخذه المأمون اه

وقال أبو الصلت الاندلسي (٢) في رسالة وقد ذكر أخلاق أهل

(١) قيل أن هذا المدخل ليس هو الباب فى الاصل وانما هو منقوب تقاصر فانفقا

(٢) توفى ابو الصلت أمية بن عبد العزيز بن ابى الصلت الاندلسى بالمهدية فى سنة ٥٢٩

مصر والا أنه يظهر (١) من أمرهم انه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم وخصوصا علم الهندسة والنجوم ويدل على ذلك ماخلفوه من الصنائع البديعة المعجزة كالاهرام والبرابى فانها من الآثار التى حيرت الاذهان الثاقبة واستعجزت الافكار الراجحة وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكر فيها، وزيل المقريزى هذه الجملة بقوله وأي شيء أعجب وأغرب بعد مقدورات الله عز وجل ومصنوعاته من القدرة على بناء جسم جسيم من أعظم الحجارة مربع القاعدة مخروط الشكل ارتفاع عموده ٣٠٠ زراع و ١٩ زراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الاضلاع طول كل ضلع منها أربعمائه ذراع وستون وهو مع العظم من أحكام الصنعة واتقان الهندام وحسن التقدير بحيث لم يتأثر الى هلم جرا بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى على ماشاهدناه منهما وقد ذكرت عجائب مصر وان ماعلى وجه الارض بنية الا وانا أرثى لها من الليل والنهار الا الهرمان فانا أرثى الليل والنهار منهما وهذان الهرمان لهما اشراف على أرض مصر واطلال على بطائحها واصعاد فى جوفها وهما اللذان أرادهما ابو الطيب المتنبي بقوله

أين الذى الهرمان من بنيانه ... ماقومه مايومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن سكانها ... حينا ويدركها الفناء فتتبع

واتفق يوما اننا خرجنا اليهما فلما طفنا بهما واستدرنا حولهما كثر التعجب منهما فقال بعضنا

---

(١) التعبير بلفظ (الا انه يظهر) يفهم منه ان أبا الصلت كان يقدح فى المصريين قبل هذه الجملة انتهى

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا على طول ما أبصرت من هرمي مصر
آنافا عنانا تسماء وأشرفا على الجو اشراف السماك أو النسر
وقد وافيا نشزا من الارض عاليا كأنهما نهدان قاما على صدر

قال المقريزى

وزعم قوم ان الاهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور ولذلك سلكوا فى بنائها طريقاً عجيباً من الشكل والاتقان فصبرت على ممر الايام لا بل على ممرها صبر الزمان . فانك اذا تأملتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثالا فى غاية امكانها حتى انها تكاد تحدث عن قوة قومها وتخبر عن سيرتهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم وذلك ان وصفها على شكل مخروط ويبتدىء من قاعدة مربعة وينتهي الي نقطة

ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض وليس له جهة أخري يتساقط عليها ومن عجيب وضعه انه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية وليست كذلك عند ما تلاقي السطح

ولما وصل الخليفة المأمون الى مصر أمر بثقبها فثقب أحد الحرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد وعناء طويل فوجدوا داخله مهاوي ومراقى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجدوا في أعلاها بيتا مكعباً طول

كل ضلع من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع وفى وسطه حوض رخام مطبق فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة باليـة قد أتت عليها العصور الخالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ماسواه ويقال ان النفـقة على نقبه كانت عظيمة والمؤنة شديدة

وحكي من دخله وصعد الي البيت الذى فى أعلاه فانهم لما نزلوا حدثوا بعظيم مشاهدوه وانه مملوء بالخفافيش وأبوالها وتعظم فيه حتى تكون قدر الحمام وفيه طاقات وروازن نحو أعلاه كأنها عملت مسالك للريح ومنافذ للضوء بحجارة جافية والعجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس فى الامكان أصح منه بحيث لا نجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة وبينهما طين لونه الزرقة لايدرى ماهو ولا صفته اه

وكان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الاهرام فبدأ بالصغير الاحمر فأخرج اليه النقابين والحجارين وجماعة من أمراء دولتـه وعظماء مملكته وأمرهم بهدمه فخيموا عنده وحشروا الرجال والصناع ووفروا عليهم النفقات وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد الجهد واستفراغ بذل الوسع الحجر والحجرين فقوم من فوق يدفعونه بالاسافين وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والاسطان فاذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة حتي ترجف الجبال وتتزلزل الارض ويغوص في الرمل فيتعبون تعبا آخر حتي يخرجوه ويضربون فيـه بالاسافين بعد ماينقبون لها موضعا ويثبتونها فيه فيتقطع قطعا وتسحب كل قطعة على العجل حتي يلقي فى ذيل الجبل وهى مسافة قريبـة . فلما طال ثواءهـم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهت